صورة الصهيوني_في الشعر الفلسطيني – قصائد محمود درويش نموذجا.

وفاء سالم: طالبة دكتوراه
ياسمين فيدوح، الرتبة: أستاذة محاضرة أ
مخبر: كلية الآداب والفنون جامعة مستغانم
جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على أهم صور الصهيوني_في الشعر الفلسطيني عموما، وفي قصائد محمود درويش خصوصا، من خلال الوقوف على نماذج شعرية. انطلاقا من الإشكاليات الآتية: كيف بدت صور الصهيوني_في الشعر الفلسطيني؟ وما هي أهم سمات هذه الشخصية_في شعر محمود درويش؟ وهل هي صور نمطية صاغتها قوالب الأدب عموما؟ أم أنها صور واقعية تعكس الواقع الفعلي لما يكابده الشعب الفلسطيني؟

الكلمات المفتاحية: الصورائية، الشعر الفلسطيني، محمود درويش، صورة الصهيوني، تحليل.

Abstract:

The core purpose of this study attempts to shed light on the most important images of Zionist in Palestinian poetry in general and in particular, Mahmoud Darwish's poetry. By standing on some poetic models. The ratione as as well as the main questions of the paper to be searched are as follows: How are the Zionist images portrayed in Palestinian poetry? What are the characteristics of such a portrait in Mahmoud Darwish's poetry? Are they stereotype images that formulated by the literature in general, or are they realistic images that reflect the reality of the suffering of the Palestinian people?

Keywords: Imagologie, Mahmoud Darwish, Palestinian poetry, Zionist image, Analysis

تمهيد:

لقد تفاعل الشعر العربي –عامة– مع القضية الفلسطينية، واعتبرها قضيته الأولى؛ ذلك أنّها قضية قومية تمس جميع العرب والمسلمين، مصورا بذلك أبشع صور الهمجية والتعذيب التي مارسها الاحتلال الصهيوني في حق الشعب الفلسطيني الأعزل؛ مجسدا في الوقت ذاته معاناة هذا الشعب الأبيّ في انتفاضاته ضد الآلة الصهيونية . وعلى الرغم من أنّ معظم الشعراء العرب جنّدوا أقلامهم تنديدا بجرائم بني صهيون، وأبرزوا شعورهم الحسي تضامنا مع إخوانهم الفلسطينيين، غير أنّ إحساس الألم والمعاناة لا ينبع إلا من أفواه عاشت الواقع الفلسطيني المرير وتجرعت مرارته، وتكبدت مأساته، وعليه كان الشعر الفلسطيني أحسن مُصور لهذا الصهيوني الغاصب نظرا للحضور القوي لهذا الأخير في حياة الفلسطينيين، وهذا ما نلمسه في قصائد أهم شعراء فلسطين أمثال: حنا أبو حنا وسميح القاسم وفدوى طوقان وغيرهم .. ولعل حضور هذا الأخير يتجلى بصورة بارزة في أشعار محمود درويش؛ ذلك أنّه يعتبر أحد أهم شعراء المقاومة، لارتباط اسمه الكبير بالقضية الفلسطينية، إذ نكاد نجزم أنهما يمثلان وجهان لعملة واحدة.

1/مفهوم الصورائية :

يعتبر حقل الصورائية "Imagologie" من أهم حقول الأدب المقارن المستحدثة، قياسا بمجالاته ونظرياته من الدراسات الأخرى كالتأثير والتأثر، حقل الموضوعات..وغيرها.

وهذا ما جعل من دراستها أمرا صعب المنال ، ذلك أن علم الصورة هو « العلم الذي يُعنى بدراسة الصور الثقافية التي رسمتها الشعوب عن بعضها المنبثقة من تحت وطأة غياب أو المتسربة من مسكوت عنه وتهتم برصد انطباعات المجتمعات الرابضة في خيال الوعي الجمعي، التي تتم على أنساق معرفية عامة »[1]

وإذا ما عدنا إلى الإرهاصات الأولى لعلم الصورائية نجد أن البدايات التطبيقية في هذا الحقل كانت « مع جون ماري كاريه(G. M carré) ، ثم أخذها عنه ماريوس فارنسوا غويار (M. F Guyard) ودافع عنها ، ونشرها في الفصل الأخير من كتابه الصغير ضمن سلسلة (كوسيج – ماذا أعرف ؟) عام 1951 م " الأجنبي مثلما نراه "».[2]

وبعد ذلك توالت الدراسات في هذا المضمار التطبيقي فلقي هذا الحقل رواجا لدى جماعة من الباحثين خصصوا له سلسلة من الكتب والأعمال والرسائل، وعبر محمد غنيمي هلال – رائد الدراسات الأدبية المقارنة في العالم العربي– عن رأيه بخصوص هذا اللون من الدراسات الأدبية قائلا : « هذا أحدث ميدان من ميادين البحث في الأدب المقارن ، لا ترجع أقدم البحوث فيه إلى أكثر من ثلاثين عاما ولكنه سيكون من أوسع ميادين الأدب

المقارن وأكثرها روادا في المستقبل »[3] ، وقد تعددت أشكال الصور التي اشتغل عليها الباحثون المقارنون وتباينت توجهاتها، فمنهم من اشتغل على صورة شعب في صورة شعب في أدبه « وهذا النّوع من الدّراسات لا يتعدّى إطاره القومي واللّغوي، فهو إذن يبحث فنيات الأديب في طرق موضوعه أو فنيات الأدباء في تناول الموضوع، بالوصف والتحليل مثل صورة الفرنسيّين في أدبهم أو صورة المرأة الألمانيّة لدى أديب ألماني، أو صورة المرأة المصريّة في روايات نجيب محفوظ أو في الأدب المصري عموما»[4] ، ومنهم من اشتغل على صورة شعب في أدب شعب آخر، ذلك أن الأمم «لا تهتم إلا بالشعوب المجاورة لها أو التي تشترك معها في مسألة، أو أن يكون لها معها مصالح اقتصاديّة، أو تريد كسب ودّها أو تخشى بأسها»[5] ، وهناك من اشتغل على صورة شعب كما يصوره مؤلف ما من أمة أخرى، ومنهم من ذهب إلى الاشتغال على صورة شعب في شكل أدبي معين لدى شعب آخر، ومع هذا قد «يصل الباحث إلى صور تبعد عن الأمانة والدقة في التعبير عن البلد المراد تصويره»[6] وهذا يمكن إرجاعه إلى أسباب كثيرة أقربها هو تسرع الباحث في إصدار أحكام مسبقة تحتاج إلى دراسة دقيقة.

2/ تجليات صور الصهيوني في الشعر الفلسطيني :

لقد واكب الشعر الفلسطيني الأوضاع السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية التي فرضها المستعمر الصهيوني ، هذا ما جعل مواضيعه الأدبية تعرف نقلة نوعية- شكلا ومضمونا- منذ النكبة الأولى عام 1948م ، والتي نتج عنها مشاهد مفجعة لأبناء الشعب الفلسطيني الذي مورست فيه كل وسائل التعذيب والاحتقار والذل ، مما أنطق ألسنة الشعراء وفجر قرائحهم وولّد لديهم أساليب مختلفة ورؤى شعرية جديدة وصوراً دامية معبّرة تختلف في « فلسطين عنه في أي مكان آخر، ذلك أن الأمر هنا ليس مجرد فكرة، أو مجرد منتج صناعي أو ثقافي، بل هو مشروع يوجد في مشروع استيطاني احتلالي مرعب يستعمل ليس فقط تكنولوجيّته، وإنما أيديولوجيته أيضا، وهو لا يأتي بذلك منفردا، بل معززا برؤية غيبية وسياسية، وفيزيائية غريبة، ومدعومة من الغرب ».[7]

ومن أبرز الشعراء الفلسطينيين الذين سخروا أقلامهم دفاعا عن قضية العرب الأولى، بل قضية العالم بأسره " فدوى طوقان " وهذا جلي بوضوح في قصيدتها الرمزية "الطاعون " التي رمزت فيها لبني صهيون برمز الطاعون الذي سكن الجسد الفلسطيني ونهش لحمه وعمّر فيه سنينَ طوال ، في محاولة منها لتنبيه البلدان العربية من تفشي هذا المرض

العضال في بلدانهم ، مبرزة معاناة الشعب الفلسطيني ومدى تجرعه لمرارة الأحزان. وفي ذلك تقول:[8]

يوم فشا الطاعون في مدينتي
خرجتُ للعراءْ
مفتوحةَ الصّدر إلى السماءْ
أهتفُ من قرارة الأحزان بالرياحْ :
هبي وسوقي نحونا السحاب يا رياح

وفي مقطع شعري آخر تحت عنوان: "الطوفان" نجدها توظف رمزا آخر للمحتل الصهيوني هو "الطوفان" الذي غزا أرض فلسطين و دمرها و عاث فيها فسادا إذ تقول:[9]

يوم الإعصار الشيطانيُّ طغى وامتدّ يوم الطوفان الأسودْ
لفظتهُ سواحلُ همجيّة
للأرض الطيِّبة الخضراءْ

ومن خلال هذا المقطع نلتمس مدى عمق المأساة التي يكابدها الشعب الفلسطيني جراء الاحتلال الصهيوني، لدرجة أن الشاعرة شبهته بالإعصار الشيطاني الذي تصاحب مع الطوفان مما زاد من قوة اندفاعه، ما جعله أكثر خطورة على أرض فلسطين الطيبة الخضراء، علاوة على سواده نظرا لمجيئه من سواحل همجية.

وإلى جانب "طوقان " نجد شاعرا آخر من أهم شعراء المقاومة الفلسطينية -يحذو حذوها، هو "سميح القاسم " الذي حاول أن ينقل لنا صورا أخرى عن جنود بني صهيون في قصفهم للفلسطينيين دون وضع اعتبار للفئة البريئة منهم (الأطفال) حين رسم ذلك في قصيدته الموسومة بـ "أدافع" لقوله:[10]

القصف برا وجوا وبحرا
بيانات الاحتجاج والإدانة
دمى الأطفال
وجماجمهم المتناثرة
تحت جنازير الدبابة المتقنة

نجده في هذا المقطع الشعري يبرز أبشع مظاهر الوحشية التي مارسها الصهيوني في حق الأطفال الفلسطينيين، حارما إياهم من أبسط حقوقهم وهو اللعب والاستمتاع بحياتهم التي كانت ستكون جميلة لولا وجوده خالية من كل حرمان. مصورا في الوقت ذاته مشاهد أليمة

للأطفال تُدمي القلوب أسى، وهم متناثرون على حافات الطرقات، مقترنون بألعابهم ودماؤهم فائضة في أرض المجزرة ، كاشفا عن مدى تجرد هذا الآخر من كل القيم والمعاني الإنسانية التي يتسم بها الإنسان .

وعلى غرار فدوى طوقان وسميح القاسم، واكبت ثلة كبيرة من شعراء المقاومة الفلسطينية هذا التصوير، كل حسب طريقته ورؤياه، أمثال: حنا أبو حنا؛ نازك الملائكة؛ محمود دسوقي؛ زياد توفيق.. وغيرهم .

3/ صور الصهيوني في شعر درويش:

احتل الصهيوني المساحة الأكبر في شعر محمود درويش؛ الذي أبرزه ومثّله في قصائده بتصوير دقيق وتجسيد حقيقي لما يعايشه الشعب الفلسطيني من معاناة نفسية وجسدية. التي تباينت صور الصهيوني فيها، وهذا ما ظهر جليا في ثنايا قصائده التي ضمتها دواوينه الآتية: (عاشق من فلسطين) (لماذا تركت الحصان وحيدا) و(حالة حصار) ومن بين هذه الصور:

3-1- صورة المُحاصِر :

غلبت صورة المحاصِر الصهيوني على قصائد درويش، وهي محاولة منه لتبيان الحصار الممارس ضد الشعب الفلسطيني، الذي أصبح يعيش داخل سجن وهو في بلده، أما سجّانه فغريب عن الديار ومع ذلك يعيش حرا يتحكم في كل الأمور، ومن قصائده التي جسد فيها هذه الصورة "حالة حصار" التي جاء في مطلعها :[11]

هنا، عند مُنْحَدَرات التلال، أمام الغروب
وفُوَّهَة الوقت،
قُرْبَ بساتينَ مقطوعةِ الظلِ،
نفعلُ ما يفعلُ السجناءُ،
وما يفعل العاطلون عن العمل:
نُرَبِّي الأملْ.

استطاع درويش في هذا المقطع أن يصور لنا حالة الاحتضار التي يعيشها الفلسطينيون في بلدهم لا يملكون حلا غير الانتظار متأملين غدا أفضل، وما هذا إلا تصوير لحقيقة الحياة القاتمة التي يتخبط فيها الفلسطيني منذ قرن من الزمان ، وكأنه يقاوم ذئبا شرسا متمرسا، يعرف جيدا قوانين الحروب وحيلها ، وهذا ما يجعل الحرب بينهما غير متوازنة، فهي

حرب شرسة بين شعب أعزل وقوة فتاكة تزداد ضراوة كلما ازدادت قوة المبادرات الفلسطينية.

وفي مقطع آخر من نفس القصيدة يرسم لنا درويش صورة الحصار ثانية ليبين لنا مدى التضييق الذي يفرضه الصهيوني على الفلسطيني، ومدى كبر المحنة التي يمر بها هذا الأخير، فالصهيوني ساهر دائما على خنق الفلسطينيين بحصارهم وكبح جماح حريتهم وفي ذلك يقول :[12]

أيها الساهرون! ألم تتعبوا
من مراقبة الضوء في ملحنا؟
ومن وهج الورد في جروحنا
ألم تتعبوا أيها الساهرون ؟

ومن خلال هذه الأسطر نكتشف عمق الحصار النفسي للفلسطيني، فهو محاصر في الشارع؛ في بيته؛ بل حتى في غرف نومه، إنه حصار الموت المحتوم الذي لا هروب منه بغير التضرع لله عز وجل.

3-2- صورة السّجان:

صور السّجان هي الأخرى تنوعت في شعره، معبرا عمّا يقاسيه المساجين الفلسطينيين داخل السجون والمعتقلات؛ فدرويش نفسه مر بهذه المرحله شأنه شأن باقي الشعراء ممن تعرضوا لتجربة الاعتقال، إذ سُجن أكثر من مرة ، لأنه من بين الذين جنّدوا كلمتهم لخدمة القضية الفلسطينية ، ففي قصيدته المعنونة بـ "شهيد الأغنية" يصور درويش أبشع أساليب التعذيب التي مارسها السّجان الصهيوني في حق هؤلاء، حين قال:[13]

نَصَبُوا الصليبَ على الجدارْ
فكّوا السلاسل عن يدي.
و السوط مروحةٌ. ودقات النعال
لحن يصفِّرُ: سيدي!
و يقول للموتى : حذار !
يا أنت !

ففي هذا المقطع تصوير دقيق لأقسى حالات الألم الجسدي والظلم الإنساني، فدرويش داس على الوتر الحساس لضعفاء القلوب بتعبيره عن المجازر اليومية داخل السجون الفلسطينية.

وفي قصيدة أخرى موسومة بـ "تحدٍّ" يشير درويش إلى صمود الشعراء في وجه سياسة بني صهيون التي تمنعهم من كتابة الشعر من خلال ممارسة السّجان لسلطة الضرب والتنكيل والقهر في حقهم، وفي ذلك يقول درويش:[14]

شُدّوا وثاقي
وامنعوا عني الدفاتر
والسجائرْ
وضعوا التراب على فمي
فالشعر دمُّ القلب.

وهذا المقطع يبرز فيه درويش أنه لن يتخلى عن قول الشعر، مهما منعوا عنه الدفاتر أو حرموه من السجائر، أو وضعوا التراب على فمه، لأن الشعر يمثل النور الذي يستمد منه الأمل في النجاة من غياهب السجن الموحشة.

3-3- صورة المضطهِد :

لقد برزت صور الاضطهاد بأشكال مختلفة في قصائد درويش، فالصهيوني مهما كانت ظروفه لن يستطيع أن ينسلخ من جلده الشيطاني ويلبس لباس الملائكة، وهذا ما جعل درويش يصوره في مرات كثيرة بصور قاتمة تحمل في طياتها معاني الشر واللاإنسانية، ففي قصيدته "شهيد الأغنية" رسم لنا درويش صورة الصهيوني المستبد الذي مارس سلطة إلقاء الأوامر وإخضاع الآخرين تحت سلطته، مشبها إياه بالوحش الذي يتقن النباح كالكلاب إذ يقول:[15]

قال نباحِ وحشْ:
أعطيكَ دربكَ لو سجدتَ
أمام عرشي سجدتينْ !
ولثمت كفي، في حياء، مرتينْ

وهذا المقطع دليل على اضطهاد الصهيوني للفلسطيني وإذلاله من خلال تخييره ما بين الركوع له أو الموت تحت رحمته.

ومن صور الاضطهاد أيضا ما جاء في قصيدة "نشيد" إذ حاول درويش أن يصور لنا من خلالها عمق الاحتقار الصهيوني للإنسان الفلسطيني، مبرزا لنا مدى عنصريته ضد الفلسطينيين خاصة، والعرب عامة وفي ذلك يقول:[16]

سنخرج من مخابينا

ويشتمنا أعادينا:
«هلا .. همج همُ .. عرب»
فالصهيوني من خلال هذا المقطع يقلل من قيمة العربي وينعته بالهمجي، وهذا يدل على عدم اعترافه به وهو بالنسبة إليه أدنى درجة من الحشرة.
وفي نفس القصيدة أبرز درويش مدى شدة المعاناة التي أرغم الصهيوني الفلسطيني أن يعيشها، بحرمانه من أبسط حقوقه كإنسان إذ يقول:[17]
ألو..
أريد يسوع
نعم ! من أنت !
أنا أحكي من «إسرائيل»
وفي قدمي مسامير .. وإكليل
من الأشواك أحمله
فأي سبيل
أختار يا بن الله .. أي سبيل؟
وهنا نجد درويش يذكر رمزا دينيا «يسوع» في محاولة منه للاستنجاد به من ظلم الصهاينة وقهرهم للفلسطينيين، وهذا يدل على مدى الإحساس العميق بالألم ومدى الحرقة الكامنة داخل كل فلسطيني أهلكته قذائف المستعمر وأطفأت فيه كل شموع الفرح والتفاؤل بمستقبل مشرق .

3-4-صورة الطّاغية:

يعود درويش مرة أخرى ليرسم صورة مختلفة للصهيوني، ممثلا له بالطاغية الذي طغى وتجبر واتخذ من أرض فلسطين موطنا له، سالبا الفلسطينيين أرضهم الغالية. ففي قصيدته المعنونة بـ "صلاة أخيرة" يكشف درويش عن هذه السيطرة الصهيونية التي غزت الأراضي الفلسطينية واستبدت بشعبها فيقول: [18]
أيا مهرة يمتطيها طغاة الزمان
وتفلت منا.
من الزمن الأولِ

ففي هذا المقطع يصور درويش الصهيوني على أنه طاغية هذا الزمان يمتطي مهرة، والمقصود بالمهرة هنا "أرض فلسطين الحبيبة" التي استولى عليها الصهاينة واغتصبوها وارتكبوا فيها أبشع الجرائم.

ليتابع درويش في مقطع شعري آخر يستحضر فيه صورة الطاغية من جديد، معبرا عن معاناة الفلسطينيين اليومية مع مجازر الموت، مبرزا بشاعة المحتل في سفكه لدماء الأبرياء، وذلك في قصيدته الموسومة بـ "الموت مجانا" يقول:[19]

فلترفعي جيداً إلى شمس تحنّت بالدماء
لا تدفني موتاك! .. خَلّيهم كأعمدة الضياء
خلي دمي المسفوكَ.. لافتة الطغاة إلى المساء
خليهِ نِدّاً للجبال الخضر في صدر الفضاء!

فصورة الطاغية جليّة بوضوح في هذا المقطع، عبّر من خلالها درويش عن مدى وحشية الصهيوني الذي يستمتع كل مرة رأى فيها جثث الفلسطينيين مرميّة على الأرض؛ محنّاة بالدماء .

وفي قصيدة أخرى تحت عنوان "سرحان يشرب القهوة في الكافيتيريا" نجد درويش يعبّر عن ضيقه الشديد واختناقه من تكاثر الصهاينة الطغاة في أرضه، إذ لا مفر ولا هروب من لقائهم وفي ذلك يقول: [20]

وتناسل فينا الغُزاةُ تكاثر فينا الطغاة. دم كالمياه،
وليس تجفّفه غير سورة عم وقبعةِ الشرطيّ

وفي هذا المقطع إشارة دينية عمد درويش إلى توظيفها، يدعو فيها إلى اللجوء لكلام الله عز وجل بذكره لسورة عم، بغية التخلص من هذا الوجود المنبوذ، فلا مُخلّص من طغيان هؤلاء الطغاة بغير الدّعاء والتضرع لله سبحانه وتعالى.

خاتمة: نخلص مما سبق إلى النقاط الآتية:

-أنّ علم الصورة هو من أهم الحقول المستحدثة في الأدب المقارن بالقياس مع الحقول التطبيقية الأخرى.

-أنّ الشاعر الفلسطيني أحسن مصور لمعاناة الفلسطينيين وما يكابدونه من قهر وظلم وتنكيل ووقفنا في البحث على نماذج من قصائد كل من: محمود درويش، فدوى طوقان، سميح القاسم...وغيرهم.

-كما وقفنا على تباين صور الصهيوني في شعر درويش، التي رسمها في قصائد كثيرة ومتعددة أبرزها: صورة المحاصِر، صورة السّجان، صورة المضطهد، الطّاغية، القاتل، العدو، المغتصب، الغازي وغيرها... والتي يصعب حصرها في مقال أو حتى في كتاب، نظرا لغزارة شعر درويش الذي كان في غالبه خادما للقضية الفلسطينية، مصورا لمعاناة الفلسطينيين ولاستبداد الصهاينة.

-وأنّ هذه الصور لم تكن صورا نمطية ناتجة عن أحكام واهية، بل إنها نابعة من عمق التجربة والواقع الفلسطيني المرير الذي عاشه الشاعر وكل الفلسطينيين.

الهوامش:

---

[1] نوافل يونس الحمداني: الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، مجلة ديالي، العدد الخامس والخمسون ،2012، ص:02.

[2] دانيال هنري باجو: الأدب العام والمقارن، تر غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب،1997، ص:89.

[3] محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، نهضة مصر، مصر، (ط3)، 2003، ص:419.

[4] عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (دط)، 1986، ص:61.

[5] المرجع نفسه، ص:68.

[6] محمد زكي العشماوي: دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2005، ص:40.

[7] طه المتوكل: صورة الآخر في الشعر الفلسطيني(1994-2004)، الشعار رام الله، فلسطين، (ط1)، 2005، ص:05.

[8] فدوى طوقان: الأعمال الشعرية الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (ط1)، 1993، ص:372.

[9] المصدر نفسه، ص:375.

[10] سميح القاسم: الأعمال الكاملة، مج6، دار سعاد الصباح، الكويت،1993، ص:252-253.

[11] محمود درويش: حالة حصار، دار رياض الريس، بيروت، لبنان، (ط1)، 2002، ص:09.

[12] المصدر نفسه، ص:47.

[13] محمود درويش: الأعمال الاولى1، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، (ط1)، 2005، ص:111

[14] المصدر السابق، ص:132.

[15] المصدر السابق، ص:111.

[16] المصدر نفسه، ص:160.

[17] المصدر السابق، ص:164-165.

[18] المصدر نفسه، ص:171.

[19] المصدر نفسه، ص:222.

[20] محمود درويش: الأعمال الأولى2، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، (ط1)، 2005، ص:100.